

المبادئ العشرة لعلم التصوف (1)



أهداف الدرس

1. أن أتعرف حد التصوف وموضوعه.
2. أن أثبتين مبادئ علم التصوف.
3. أن أستشعر شرف اسم التصوف ومسماه.

تمهيد

جرت عادة المُدرسين والمؤلفين بذكر ما يتعلق بمبادئ كل علم قبل الخوض فيه، وتسمى «المبادئ العشرة» و«معرفة العلم». وحقيق على كل متعلم أن يعيها في مطلع دراسة كل فن، ليكون على بصيرة في طلبه، مدركاً أولوياته قبل الشروع فيه.

فما هو حد علم التصوف؟ وما موضوعه؟ ومن واضعه؟

نص الانطلاق

1- قال الإمام القشيري - رحمه الله - «الصفاء محمود بكل لسان، وضده الكدورة، وهي مذمومة...، وهذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفي، والجماعة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: «متصوف» والجماعة «المتصوفة» وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس، ولا اشتقاق، والأظهر فيه: أنه كالقلب. فأما قول من قال إنه من «الصوف» وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال: تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه؛ لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى «الصفة» لا تجيء على نحو الصوفي. ومن قال: إنه من «الصفاء» فاشتقاق الصوفي من «الصفاء» بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال: إنه مشتق من «الصف» فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح،

ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى «الصف». ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق، وتكلم الناس في التصوف ما معناه وفي الصوفي من هو فكل عبر بما وقع له، واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز...».

[الرسالة القشيرية، 440/2].

2- قال الشيخ زروق -رحمه الله- «اختلاف المسالك راحة للسالك، وإعانة على ما أراد من بلوغ الأرب والتوصل بالمراد. فلذلك اختلفت طرق القوم ووجوه سلوكهم، فمن ناسك يؤثر الفضائل بكل حال، ومن عابد يتمسك بصحيح الأعمال، ومن زاهد يفر من الخلائق، ومن عارف يتعلق بالحقائق، ومن ورع يحقق المقام بالاحتياط، ومن متمسك يتعلق بالقوم في كل مناط، ومن مرید يقوم بمعاملة البساط، والكل في دائرة الحق بإقامة حق الشريعة والفرار من كل ذميمة وشنيعة». [قواعد التصوف، ص 50].

الفهم

الشرح:

- **الصفة:** مكان في مؤخر المسجد النبوي، مظلل، أعد لمن لا مأوى له ولا أهل.
 - **أهل الصفة:** هم فقراء المهاجرين الذين لازموا المسجد النبوي، فقليل لهم: أهل الصفة.
- أستخلص من نص الإمام القشيري ما قيل في سبب تسمية الصوفية بهذا الاسم، وأرجح بينها.

التحليل

أولاً: حد التصوف

حد التصوف والصوفي له تعلق بسبب تسميته التي اختلف فيها العلماء على أقوال؛ فقليل لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى. وقيل من الصفة، إذ جملته اتصاف بالمحاسن، وترك الأوصاف المذمومة. وقيل من «الصفاء». وقيل: من «الصفة» وهم الرعيل الأول من رجال التصوف. وقيل: من «الصفوة». وقيل: نسبة إلى لبس الصوف الخشن،

لأن الصوفية كانوا يؤثرون لبسه للتكشف والاختشيشان . ونقل الغزالي ما قيل فيه إنهم «سموا صوفية لأنهم وقفوا في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بين يديه بسرائرهم» . [رسائل الغزالي، ص 104].

وقد انتخب الإمام زروق -رحمه الله- مجمل ما عُرِف به التصوف بقوله: «وقد حُدِّدَ التصوف، ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه» . [قواعد التصوف، ص 24]. وتعدد الألفاظ المبينة له دليل شرف المسمى . ومدارها على معنى «صدق التوجه إلى الله» إذ مقصود التصوف: تهذيب القلب، ورياضة النفس، والتخلص من الرذائل، والتحلي بالفضائل، والأدب مع الله، ومع النفس، ومع الناس، وهو المعبر عنه بقولهم «الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني» [الرسالة القشيرية، للقشيري، ص 77]. وظاهر من خلال تتبع مختلف حدود التصوف أن «صدق التوجه» هو ركنه ومداره «وكل من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وإن تصوف كل أحد صدق توجهه» [الأزهار الطيبة النشر، ص 151].

الفرق بين التصوف وعلم التصوف:

إذا كان ما قيل في حد التصوف دائر على المعنى الذي ذكرنا فإن حد «علم التصوف» دائر على ما يفيد أنه «هو العلم الباحث عن الآداب اللائقة بالعبد بين يدي رب الأرباب» [الأزهار الطيبة النشر، ص 150] فعلم التصوف هو حقائق وقواعد وضوابط التصوف ومعرفة ما به يكون به السلوك وكيف يكون، أما التصوف فهو صدق التوجه إلى الله تعالى وسلوك وتربية، فمن عمل بعلمه على وجه الإخلاص وسلك طريق الوصول، فهو الصوفي حقا . ومن ابتغى هذه الدرجة بالمجاهدة، مع المتابعة في المعاملة فهو المتصوف صدقا .

ولا يخفى أن التباين في العبارات مرد بعضه إلى دلالات القصد والسياق وتمييز ممارسة «التصوف» عن «علم التصوف» وإن كان الفصل بينهما عسيرا، ويمكن الجمع بين مختلف ما قيل في ذلك باعتبار أن «التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدورات النفس -أي عيوبها- وصفاتها المذمومة، كالغل، والحقد، والحسد، والغش، وطلب العلو، وحب الثناء، والكبر، والرياء، والغضب، والأنفة، والطمع، والبخل، وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، وهذا لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته» [الدر الثمين والمورد المعين، ص 545].

و«الصوفي» هو المنقطع بهمته إلى الله تعالى، المتصرف في طاعته، و«المتصوف» هو المدخل نفسه في الصوفية. [التشوف إلى رجال التصوف، ص 34].

ثانياً: موضوع علم التصوف والتصوف

موضوع علم التصوف هو: قواعده، وضوابطه، وحقائقه، وموضوع التصوف هو: الآداب، أدب العبد بين يدي ربه، ثم الأدب مع خلقه، والأدب مع النفس، وما في الكون، قال العلامة ابن حمدون - رحمه الله - «وأما موضوعه: فالذات العلية لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها، إما، بالبرهان، أو الشهود والعيان، فالأول: للطالبيين، والثاني للواصلين. وقيل موضوعه: النفوس، والقلوب، والأرواح؛ لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها...، وقيل: الآداب اللائقة بالعبد بين يدي مولاه» [الأزهار الطيبة النشر، ص 151 بتصرف].

ويشمل موضوعه: ما يصلح الظاهر والباطن، قال الإمام ابن عطاء الله السكندري «فاعلم أن الفرائض التي اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة، وباطنة. فالظاهرة مثل: الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، إلى غير ذلك. أما الباطنة، كالعلم بالله، والحب له، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه والرجاء فيه» [لطائف المنن، ص 41]. فتوافق الظاهر والباطن ليس كمالات أو تكاملاً فحسب، بل هو شرط للاتصاف بهذا الوصف عند القوم، وهو أمانة الصدق والإخلاص. قال الشيخ زروق - رحمه الله - «الرياضة: تمرين النفس لإثبات حسن الأخلاق، ودفع سيئها، وبهذا الوجه اختصاص علم التصوف» [قواعد التصوف، ص 126].

ثالثاً: واضعه

واضع التصوف هو الله تعالى في القرآن الكريم ورسوله ﷺ في سنته القولية والفعلية. وفي القرآن آيات بينات تتحدث عن المحاسبة، والتوبة، والإنابة، والذكر، والمحبة، والتوكل، والصبر، والإيثار، والصدق، والمجاهدة، ومخالفة الهوى والنفس، وأنواع النفوس، وما يصلحها وتصلح به، وفيه كيفية تحصيل ذلك وتزكية النفس به.

وواضع علم التصوف هم العلماء الربانيون كالإمام الجنيد البغدادي. ومهما تعددت الأقوال وتباينت في تعيين واضع علم التصوف فإن «أصل طريقة التصوف عند سلف الأمة من الصحابة والتابعين كان بالعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن الدنيا وزينتها

من: لذة، ومال، وجاه، والانفراد عن الخلق للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف من بعدهم، فلما فشى الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم «الصوفية» و«التصوف» [مقدمة ابن خلدون، ص 611]. ثم شرعوا يؤسسون لهذا العلم، ويوضحون مسأله ويبينون غوامضه إلى أن «اختصوا بمواجد وأذواق وأحوال ناشئة عن المجاهدة في العبادة، حتى صار مبنى طريقتهم على محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستمر للمريد مقاما ويترقى منها إلى غيرها، ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم...» [الأزهار الطيبة النشر، ص 151].

والنسبة إلى بعض الأعلام عند الحديث عن الواضع هي من باب ما كان لهم من الجهد والأثر، وقد ذكر العلامة عبد الله بن الصديق - رحمه الله - «أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي؛ إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بينها واحدا واحدا دينا فقال: «جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» [صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام] فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان» [الانتصار لطريق الصوفية الأخيار، ص 5]. والإحسان في معناه ومبناه قد تواترت به نصوص الشرع، وهو درجة رفيعة، ومطلب ذوي الهمم بعد الإسلام والإيمان، كما هو معلوم في حديث جبريل عليه السلام.

والمتتبع لما كتب في تاريخ التصوف الإسلامي يلاحظ الاختلاف في الإشارة إلى الواضع، والتباين في الأسماء، وذكر عدد من الصحابة والتابعين، ثم اشتهرت نسبة الطريقة إلى الإمام الجنيد - رحمه الله - الذي تميزت طريقته باتباع الكتاب والسنة، فاختر المغاربة «طريقة الجنيد السالك» مسلكا لهم، لصفاء مشربه، قال الإمام ابن السبكي - رحمه الله - «وإن طريق الشيخ الجنيد وصحبه طريق مقوم» [تشنيف المسامع بجمع الجوامع، 856/4].

رابعاً: اسمه

قال العلامة ابن حمدون - رحمه الله -: «وأما اسمه فعلم التصوف» [الأزهار الطيبة النشر، ص 150].

وإنكار بعض الناس هذا اللفظ؛ لكونه لم يسمع في عهد الصحابة والتابعين أمر مردود؛ إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة، واستعملت ولم تنكر، كما هو الشأن في أسماء مختلف العلوم؛ كالنحو، والفقه، والمنطق. قال الإمام القشيري -رحمه الله-: «اعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله ﷺ إذ لا فضيلة فوقها، فقليل لهم: «الصحابة» ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صلب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة ثم قيل لمن بعدهم «أتباع التابعين» ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقليل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: «الزهاد» و«العباد» ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق؛ فكل فريق ادعوا أن فيهم زهدا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف...».

[الرسالة القشيرية، 34/1].

التقويم

1. أبين موضوع علم التصوف.
2. أوضح سبب اختيار المغاربة لطريقة الإمام الجنيد في التصوف.
3. أبرز دواعي تميز الصوفية بهذا الاسم.

الاستثمار

قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «واضع علم التصوف هو النبي ﷺ، علمه الله له بالوحي والإلهام» [إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 19].

أوظف رصيدي المعرفي في مناقشة هذه القولة موافقة أو مخالفة.

الإعداد القبلي

أبحث عما يلي:

1. ما حكم الشرع في التصوف ومعرفته.
2. ما هي مسائل علم التصوف.